

الخليج

كتب و كتاب

11 مارس 2023 22:19 مساء

على امتداد الأطلسي





عن المؤلف



خوسيه مويبا

خوسيه سي مويبا أستاذ التاريخ في كلية بارنارد، جامعة كولومبيا، وأستاذ فخري بجامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس. حاضر في عدد من الجامعات في جميع أنحاء العالم وألف أكثر من خمسين كتاباً حول الهجرة والعمل والفوضوية والتاريخ العالمي، مترجمة إلى ثماني لغات

على عكس معظم الكتابات عن المحيط الأطلسي التي تربط تاريخها بالاستعمار الأوروبي، وتنتهي في عام 1800، يوضح هذا العمل أن الروابط الأطلسية لم تصمد بعد الاستعمار فحسب؛ بل وصلت أيضاً إلى مستويات غير مسبوقة في أوقات ما بعد الاستعمار، عندما أصبح الأطلسي حقاً مفترق طرق العالم

يُظهر هذا العمل الصادر عن دار روتليدج في 9 يناير/ كانون الثاني 2023 باللغة الإنجليزية ضمن 388 صفحة، أن تميز العالم الأطلسي لا يعتمد على مستوى أو استمرار السيطرة الاستعمارية، لكن على كثافة وطول عمر الهجرات البشرية، وما ينتج عنها من مستويات عالية من الاتصال الاجتماعي والثقافي والاتصال والاختلاط. يقول محرر الكتاب: «العالم الأطلسي هو مفهوم علائقي. إنه لا يشير إلى مكان، حوض الأطلسي، الذي كان موجوداً منذ 150 مليون سنة أو نحو ذلك، ولكن إلى تنقل البشر والعلاقات في ذلك الفضاء بالذات. بهذا المعنى، فالأمر جديد نسبياً. قفزت جزيرة الفايكنج حول حافتها الشمالية لتصل إلى نيوفاوندلاند في عام 1000، لكنها لم تقم بإنشاء مستوطنات أو علاقات دائمة هناك. بدأ

الإسبان غزو جزر الكناري في عام 1402، واكتشف البرتغاليون واستقروا في أرخبيل الأطلسي غير المأهول في ماديرا وجزر الأزور والرأس الأخضر بين عامي 1418 و1462. وقد أدى هذا إلى إنشاء العديد من المؤسسات والممارسات الاستعمارية، من مزارع قصب السكر والعبودية الإفريقية إلى القوانين المتعلقة بالسكان الأصليين التي تم فرضها لاحقاً في منطقة البحر الكاريبي والبر الرئيسي الأمريكي. ومع ذلك، لم يربط هذا بين جانبي الحوض. بحلول 1492، كان البحارة الأسترونيزيون مستقرين في المحيط الهادئ منذ آلاف السنين، ووصلوا إلى جزيرة إيستر، وكانت الدوائر التجارية قد ربطت المحيط الهندي لعدة قرون.

هجرة متزايدة

يرى محرر الكتاب أن قراءة الأدب التاريخي تشير إلى أن العالم الأطلسي له أيضاً نهاية واضحة. فقد أنهت الأغلبية العظمى من الكتب عن المحيط الأطلسي القصة في عام 1800. ومع ذلك، فإن هذا التاريخ لا يعكس أكثر من كونه مجرد عادة تاريخية متأصلة بعمق في حصر التاريخ الأطلسي على الروابط السياسية الرسمية للاستعمار الأوروبي في الأمريكيتين. يوضح هذا العمل أن الروابط الأطلسية لم تنج من نهاية الاستعمار فحسب؛ بل وصلت أيضاً إلى مستويات غير مسبوقة في أوقات ما بعد الاستعمار. وصل عدد الأوروبيين إلى جزيرة إليس في نيويورك بمقدار ضعفين في عام واحد (1907) كما حدث في كل أمريكا الشمالية البريطانية خلال قرنين من الحكم الاستعماري. في الوقت نفسه تقريباً، دخل المزيد من المهاجرين إلى موانئ بوينس آيرس وسانتوس في غضون ثلاث سنوات، وهو أكثر مما وصل إلى كل من أمريكا الإسبانية والبرتغالية خلال أكثر من 300 عام من الاستعمار. استمر التنقل والعلاقات عبر المحيط الأطلسي، وتوسعت من خلال العديد من التدابير، حتى القرن الحادي والعشرين. وصلت التحركات من إفريقيا وجزر الهند الغربية وأمريكا اللاتينية إلى أوروبا وأمريكا الشمالية إلى مستويات هائلة منذ الثمانينات. في عام 2019، عبر نحو 114 مليون شخص المحيط الأطلسي، أي ما يعادل 12 ضعف العدد خلال أكثر من ثلاثة قرون من الأنظمة الإمبراطورية الأوروبية. فقد سهلت البواخر والطائرات درجة كبيرة من التنقل متعدد الاتجاهات وهو ما كان نادراً في العصر الاستعماري. كما أن البريد العادي، والبرقيات، والهواتف، ورسائل البريد الإلكتروني، والرسائل النصية المجانية ومكالمات الفيديو، خففت من الاتصالات بما يتجاوز الحركة الجسدية المتزايدة. شكّلت الحركة على الاتجاهين شبكات اجتماعية أكبر للمعلومات والمساعدة والثقافة المادية والممارسات المؤسسية والسياسية والأفكار والأيدولوجيات، وهذا هو بالضبط ما يجعل المحيط الأطلسي مساحة اجتماعية وليس مجرد حافة محيط.

تحولات الأطلسي

يتناول الجزء الأول من الكتاب تشكيل وتحول عالم المحيط الأطلسي من عام 1400 إلى الوقت الحاضر. ويوضح سبب هيمنة الممالك الأيبيرية على أول 240 عاماً من التوسع الأوروبي في الخارج وكيف ظهر نوع من الإمبريالية البيئية في جزر الكناري والذي جاء ليصنف ما سيحدث لاحقاً في بقية العالم الجديد وأوقيانوسيا. ثم يعاين كيف سمحت الفضة والسكر والعبودية للتجارة الأطلسية بتجاوز تجارة المحيط الهندي وما يرتبط بها من حركات العمالة الحرة والسخرة. ويبين كيف حوّلت الهجرات الأوروبية 1840-1930 ما كان يعد أفقر المستعمرات في نصف الكرة الغربي إلى أكثر بلدانها تقدماً، بينما حولت منطقة المحيط الأطلسي الأوروبية - الأمريكية إلى المنطقة المهيمنة في العالم.

يغطي الجزء الثاني من الكتاب الفترة الممتدة من 1800 إلى 1930. ويرتبط القرن التاسع عشر بالهجرة الأوروبية الحرة. ومع ذلك، وصل ما يقرب من ثلث 11 مليون عبد تم أسرهم عبر المحيط الأطلسي إلى الأمريكيتين بعد إلغاء البريطانيين لحركة المرور في عام 1807. ذهب أكثر من ثلثي هؤلاء إلى البرازيل، وهي الدولة التي استقبلت ما يقرب

من نصف جميع العبيد. تم نقل الأفارقة إلى العالم الجديد خلال الممر الأوسط بأكمله. في الفصل الثاني، يتتبع جواريس وروكوينالدو فيريرا الأصول الإفريقية للعبيد والوجهات البرازيلية عبر الزمن، ودور العرق والدين في استراتيجياتهم للتكيف والمقاومة. يتضمن هذا مقارنة بين أكبر مجموعتين، من متحدثي البانتو من أنغولا والكونغو وموزمبيق ويوروباس من نيجيريا. كما يستكشف المؤلفان دور الإسلام في أكبر تمرد للعبيد في الأمريكيتين

خلال أربعينات القرن التاسع عشر، تضاعف عدد الوافدين من أوروبا بمقدار أربعة أضعاف إلى جانب أولئك القادمين من إفريقيا، وفي النهاية تجاوزهم بمقدار 6 أضعاف. ومع ذلك، تزامنت هذه الحركة العابرة للحدود غير المسبوقة والنزعة الكونية في القرن التاسع عشر مع صعود القومية، لا سيما تلك الجماعات التي لم يكن لديها دولة قومية. تتناول الفصول 3-5 تشكيل هذا النوع من القومية الإثنية في الشتات

في الفصل الخامس، يتتبع أوسكار ألفاريز جيلا وأليخاندرو فرنانديز صنع القومية الباسكية والكتالونية في العالم الجديد. وكالفصول الأخرى ذات الصلة، يوضح هذا الفصل مركزية المغتربين في هذه العملية. تم إنشاء علم ودستور كاتالونيا المستقلة ليس في برشلونة ولكن في هافانا. لم تظهر المنظمات القومية الباسكية الأولى التي تضم أعضاء من الجانبين من جبال البيرينيه في إسبانيا أو فرنسا وإنما في الأرجنتين والأوروغواي. لقد رأوا إسبانيا وفرنسا كقوى احتلال أجنبية «قطعت أوصال» شعب الباسك وأبقتهم خاضعين ل «مبدأ القوة الهمجي». تصل الهويات المزدوجة في هذا التقييم إلى حد الخيانة. لا يمكن للمرء أن يكون من الباسك والإسبان أو الباسك والفرنسيين في الوقت نفسه. وقد عكس هذا تحولاً أوسع من مجرد فكرة ثقافية عن الدولة إلى المفهوم الثقافي / السياسي للدولة القومية

يستكشف الفصل السادس دور الدين داخل نفس المجموعة القومية في وجهتين؛ حيث يقارن بنيامين برايس بين أنشطة المبشرين اللوثرين الألمان في مستوطنات مواطنيهم في كندا والأرجنتين بين عامي 1880 و1930. فقد كان التكوين الديني (بنحو الثلثين من اللوثرية والثلث الأخير كاثوليكي، كما هي الحال في ألمانيا). ومع ذلك، حافظت المؤسسات والوزارات اللوثرية في ألمانيا على علاقات أوثق مع نظرائهم في الأرجنتين. يحدد برايس التفسير في تقاطع مع مصالح الوطن ومصالح الشتات. كانت المنظمات اللوثرية في ألمانيا تخشى أن ينجرف أتباعها في الديانة في الأرجنتين إلى كاثوليكية الأغلبية من خلال التحول والزواج الخارجي والاندماج. شكل هذا جزءاً من حملة أوسع؛ حيث أرسلت نفس المنظمات الدعم إلى اللوثرين الألمان في إمبراطورية هابسبورغ الكاثوليكية وفي كيبك. في الفصل السابع، يقارن جان مويساندهجرة العمال الريفيين الموسمييين من ريف ساحل إسبانيا إلى مستعمرات في كوبا والجزائر خلال أواخر القرن التاسع عشر

تناقضات واستقطابات

يركز الجزء الثالث من الكتاب على تناقض واضح: زيادة حدة سياسات الشتات عبر المحيط الأطلسي خلال فترة (1925-1945) التي شهدت تضائل المعابر عبر المحيط الأطلسي. في عام 1924، أصدر الكونغرس الأمريكي قانوناً يحدد حصة إجمالية للهجرة تبلغ 165 ألفاً للبلدان الواقعة خارج نصف الكرة الغربي، وهو ما يمثل انخفاضاً بنسبة 87% عما كان عليه قبل الحرب العالمية الأولى. نظراً لأن الحصص تهدف تحديداً إلى تقييد الدخول من جنوب وشرق أوروبا، وتحديداً أصل ما يقرب من 80% من الوافدين خلال الربع الأول من القرن العشرين، كان الانخفاض الفعلي أكثر حدة. ثم ولد كل من الكساد الكبير والحرب العالمية الثانية، عملية نزوح العولمة التي كانت ذات طابع دولي، وهبطت الهجرة والتجارة والاستثمار إلى مستويات منخفضة بشكل غير مألوف. أصبح معظم التنقل خلال هذه الفترة على شكل هجرات داخلية داخل البلدان، في بعض الأحيان بتوجيه من الدولة أو قسرياً كما في الحركة باتجاه الشرق

في الاتحاد السوفييتي واستعمار منشوريا في الصين، أو الفصائل العسكرية. أدى تآكل النظام العالمي الليبرالي إلى تقويض الحكم الليبرالي داخل البلدان، ما سهل صعود الأنظمة الفاشية واستقطاب السياسات في الداخل وفي مجتمعات المهاجرين في الخارج.

يستكشف فريزر أوتانيلي ومايكل جوبل هذه العملية في الفصل الثامن حول سياسات الفاشية ومعاداة الفاشية بين المهاجرين الإيطاليين في وجهتيهما الرئيسيتين: الولايات المتحدة والأرجنتين، ووصف موسوليني الإيطاليين في الخارج بأنهم «قوة بالغة الأهمية». في وقت مبكر، أقام نظامه علاقات مع مجتمعات المهاجرين، لكسب دعمهم، وتعزيز وطنيتهم، وضمان الرأي العام المتعاطف، ومراقبة وترهيب المعارضين. المنظمات السياسية الفاشية في الشتات التي أسسها في الأغلب قدامى المحاربين في الحرب العالمية الأولى، ستضمن الولاء القومي وفي نفس الوقت تسهم في «تدويل» الحركة. ومع ذلك، على الرغم من التشابه في السياسة والممارسة، كانت النتائج في البلدين متباينة بشكل لافت للنظر. بحلول عام 1924، كان الفاشيون قد أسسوا 124 منظمة سياسية في الولايات المتحدة ولكن ثمانية فقط في الأرجنتين، وهي دولة كان لديها إطار مؤسسي إيطالي أقدم وأكبر وأكثر ثراءً. هذه المؤسسات القديمة، بما في ذلك المؤسسات السياسية التي أسسها المغتربون الليبراليون والجمهوريون في القرن التاسع عشر، حوّلت الفاشية إلى دولة حديثة العهد، وأحبطت توسعها. كما أنهم أعاقوا جاذبية الفاشية باعتبارها مظهراً من مظاهر الفخر العرقي، وهو عنصر أكثر أهمية في الولايات المتحدة؛ حيث كان الإيطاليون أكثر تمييزاً، وهو العنصر الذي استغله موسوليني من خلال تحويل تركيز الدعاية الفاشية في أواخر العشرينات من القرن الماضي من السياسة الحزبية إلى الاحتفالات بالقومية الإيطالية والشرف الوطني. شمل مناهضو الفاشية طيفاً أيديولوجياً واسعاً يمتد من الفوضويين إلى الملكيين بين الإيطاليين في الولايات المتحدة والأرجنتين، لكن الحزب الشيوعي لعب دوراً رائداً في كلا البلدين.

يقدم ألبرتو بينا وهيلويزا باولو نظيراً مناسباً لهذه الدراسة الأخيرة في الفصل التاسع حول مؤيدي ومعارض نظام سالازار بين المهاجرين البرتغاليين في وجهتيهما الرئيسيتين: البرازيل والولايات المتحدة. كما هي الحال مع موسوليني، حاول سالازار منذ البداية استمالة المجتمعات المهاجرة عبر المحيط الأطلسي من خلال استخدام الخدمات الدبلوماسية. ومع ذلك، فإن دعم المهاجرين البرتغاليين لسالازار في كل من الولايات المتحدة والبرازيل تجاوز بشكل كبير دعم المهاجرين الإيطاليين لموسوليني في الولايات المتحدة والأرجنتين.

يستكشف الفصلان التاليان (10 و11) سياسات الحرب الأهلية الإسبانية على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي. يوضح ريكاردو بيريز مونتفورت كيف أن وصول اللاجئين الجمهوريين إلى المكسيك، الدولة التي استقبلت أكبر مجموعة في الأمريكيتين، لم يولد دعماً حماسياً من اليسار فحسب؛ بل معارضة شديدة من اليمين. تضمنت المعارضة معظم الجالية الإسبانية القديمة والثرية نسبياً في المكسيك التي رفضت مواطنيها اليساريين المنفيين والحكومة الثورية المكسيكية التي رحبت بهم. اختلف هذا عن حالة البرتغاليين والإيطاليين في الأمريكيتين؛ حيث قسمت السياسة الفاشية مجتمعات المهاجرين الحالية، وظلت هذه الصراعات بشكل أساسي داخل الجماعة العرقية.

إحياء المعابر عبر الأطلسي

يتناول الجزء الرابع من الكتاب إحياء المعابر عبر المحيط الأطلسي بعد الحرب العالمية الثانية، لا سيما من الستينات حتى الوقت الحاضر. الفصل الأول في هذا القسم، بقلم مارلو شروفر، فترات الجسور. يقدم أولاً نظرة عامة على الهجرات الاستعمارية الحرة والقسرية من أوروبا وإفريقيا إلى منطقة البحر الكاريبي البريطانية والفرنسية والهولندية، بما في ذلك غويانا. كما يركز على هجرات ما بعد الحرب العالمية الثانية من مستعمرات الكاريبي والمستعمرات

السابقة إلى الولايات المتحدة وكندا، وبشكل خاص إلى العواصم الأوروبية

إجمالاً، تؤكد فصول هذا الكتاب مركزية تنقل الإنسان في صنع العالم الأطلسي الحديث. خلال العقود الأربعة الأولى من القرن التاسع عشر، كان التنقل لا يزال قسرياً بشكل أساسي. ويمثل التحول من العبودية في الأغلب إلى المعابر الحرة بشكل ساحق التغيير الأكثر جذرية والأكثر أهمية بين الأطلسي الاستعماري وما بعد الاستعمار. وإلى يومنا هذا لا يزال الأطلسي أحد أكثر مفترقات الطرق البشرية والاجتماعية والثقافية ازدحاماً، ويحتاج إلى مزيد من الدراسات

ترجمة وعرض:

نضال إبراهيم

"حقوق النشر محفوظة" لصحيفة الخليج. © 2024